التفاؤل والتشاؤم أيضاً

للأستاذ عبد الرحمن شكرى

إذا كان لقائل قولان: قول يتم عن تفاؤل، وآخر ينم عن تشاؤم، فليس من إخلاص الناقد للأدب أو للانسانية أو للقائل أن يشير إلى اليأس فى بعض قوله وألا يذيع الأمل فى بعضه حتى ولو كان الأمل فى الأقل من قوليه ؛ فإذا كان الأمل فى أكثر القولين أو إذا تعادلا كان إخلاص الناقد أقل . ومعاذ الله أن أقول إن الدكتور أدهم غير مخلص للأدب، وإنما يجيء البعد عن الإخلاص من الإسراع فى النقد من غير تدبر لهذه الحقائق أو من قلة التقصى والبحث التى هى صفة عامة فى الناس تظهر فى أحكامهم على أكثر الأمور . والناس فى ذلك سواسية لا فرق بين عادل وظالم ، ورفيق وغير رفيق ، وعاقل وغير عاقل . وإنى أحمل حكم الأديب الفاضل على هذه الصفة العامة فى الإنسان وأقول إنه إذا كان لقائل قولان ، وكان أحسن قوليه فى التفاؤل فمن الواجب إذاعة هذا القول ولاسيما أنه ليس تفاؤله بالقليل المنزور . ولا نحسب أن منصفا يقول إن ما ذكرنا من الشواهد ليس من أحسن ما قلت؛ وسواء أكان فى نفسه حسناً إذا قورن بقول غيرى أم غير حسن، فهو إذا قورن بما وصفه الناقد بالتشاؤم فى قولى أجود وأحسن وأليق بأن يذاع إذا كانت هناك ضرورة للاذاعة والنشر والنقد، ولم ير الناقد أن من الخير اندثاره كله بما فيه من جيد ورديء ، ومن تفاؤل وتشاؤم . وفى قولى من الرديء ما أسفت لنشره .

ولم أذكر جميع الشواهد والقصائد التى تثبت ما فصلته فى مقالى السابق، ففى قصيدة (مصارع النجباء) أيضاً أمل وتفاؤل وطموح ومنها:

إنَّ الحياةَ جمالُها وبهاؤها ... هبةٌ من النجباء والشهداء
لولا طماح الخالدين وهمُّهم ... بقيَ الورى كالتربة الغبراء
الخالدون بكل مجد خالد ... سامى المنال كنزل الجوزاء
الثائرون الهادمون ذوو النهى ... والعقل أعظم هادم بنّاء
أنى المرسلون بآية غرّاء ... الخالقون الهالكون الثائرو

(*) ذوات الخمار فى المقال السابق صحته ذوى أى الذين أسماهم خمار الخمر .

خياتهم وعلمهم ودماؤهم ... مثلُ الهدى وكواكب الإسراء

وأوبيورة (قوة الفكر) وقد نشرت فى المقطم وفى الجزء الخامس تدعو إلى تقديس مظاهر الفكر فى الحياة والتفاؤل حتى بالخطوب التى يسببها الفكر ومنها :

إنَّ الخطوبَ سنّةُ التجدُّد ... فلا تُرَعْ من سهمها المسدَّد
وأول الفكر الكبير خطْبُ ... ثم يَظَلُّ خيره يُرَبُّ

وقصيدة (عبث الشكوى) فى عنوانها ما يدل عليها. وقصيدة (أبناء الشمال) تدعو إلى السعى والعمل والأمل ومنها :

هُمْ لداعى السعى والآ ... مال عُمّال عِجَال
تعرف البيداء مما ... همْ وتنبيك الجبال

وقصيدة (صوت الله) تدعو إلى الاطمئنان إلى إرادة الله فى الحياة وإلى الالتجاء إليه ومنها :

وإنما نفس الفتى معبد ... يضيئها الله بنور عميم

وقصيدة (جهاد المصلحين) تصف ما يعترض الناس عامة من ترك آمال الإصلاح وساعيه وتدعو إلى التشبث بها ومنها :

ترى دنس الأشياء رؤية آلف ... يرى أن أحلام النفوس لغوب
يظن جهاد المرء فى العيش ضلّة ... وأن مساعى المصلحين تخيب
يرى أن خير الكون ما هو كائنٌ ... ووحى النفوس السامياتُ مُريب
ويحسب أن الشر ضربة لازب ... وأن أساليب الحياة ضروب
ويصبح فى مجرى الحوادث ريشةً ... تجوب به الأيام حيث تجوب
ويطفئ نور النفس حتى كأنما ... دواعى النفوس السامياتُ عيوب
فلا تعجبَنْ إن الشرور كثيرةٌ ... ولكنَّ يأس العاملين عجيب

وقصيدة (سنة العيش) تصف أمل المصلحين فى أن تلطّف طباع الحرص والشر فى النفس وتصف كيف أن فشل المصلحين ينبغى ألا يعوق عن الأمل ومنها :

طَبْعٌ قديمٌ سينضو المرء خلته ... مثل الأديم نفته صِمّة الصَّمَم (١)
لا بد من فشلٍ من بعده فشلٌ ... حتى يفيق سواد الناس من صَمَمِ
لا يسعد الناس سن الحرص سنتهم ... حتى يُطَهَّرَ داء الحرص بالندم

(١) الصمة الحية : أى يخلع المرء طابع الحرص كما تخلع الحية جلدها

وقصيدة (البطل المنتظر) تصف صلاح أمور الناس ونصف تفاؤلهم وأملهم وعملهم بعد الركود واليأس ومنها :

تمرُّ دهورٌ والحياةُ كما جرى
أمرٌّ وقدماكان وهو طهورُ
إلى أن يحل الغيث حيوة مائه
فينزع منه جدول وغدير
كذلك حال الناس فالناس آجن
مرير وماء النابغين نمير
وبارقة تجلو الظلام وصاعق
يشب لهيباً والأنام قشور
فيضطرم القلب الذى كان خامداً
ويصبح روض النفس وهو نضير
وتعظم نفس المرء حتى كأنها
عوالم فيها الكائنات تدور

وقصيدة (الإيمان والقضاء) تصف أثر الإيمان فى بث القوة والأمل فى النفس ومنها :

كنفٌ مانعٌ وظلٌ ظليلٌ
وشرابٌ يشفى أوام الظماء

وهناك مقطوعات كثيرة مثل :

كل ما فى الوجود مما يريق الـ
ـدمع أو يستبيح شجو الرحيم
كل شرٍّ مهما تعاظم لو قيـ
ـس بشأن الوجود غير عظيم
فليست للتفاؤل عقيدة أعظم مما فى هذين البيتين . وقصيدة : (الحياة والفنون) . كلها تفاؤل بجمال الفنون فى الحياة ووصف لجمال كل من من الفنون الجميلة والفنون النافعة وأولها :

جُعلتِ الله ، حياة كما
جعل وجه السماء بالشُّهُبِ

والدعوة إلى بلوغ النفس غايتها بالطموح منتشرة فى أكثر القصائد كما فى قصيدة (على السرائر) . ومنها :

وإنَّ رضاء النفس ما ينبغى لها
وليس رضاء النفس ما هو كائن

وفى قصيدة أخرى :

والذنب يحمل بين جنبيه الذى
روعَ الغريب وراحةَ المألوف
إنَّ الذى درس الزمان وفعله
لأجلُّ من حدث الزمان الموفى

ويشيد أسرار الحياة بحكمة تُعدى على المجهول والمعروف

وفى قصيدة (العظيم) وصفٌ لاستنباط فضائل النفس من تجارب الحياة حتى تجارب الشر والشقاء . ومنها .

وفضائلٌ ليست لغير مُجرَّب
إن التجارب حجة الرجحان
وأجلُّ خير النفس بعد بلائها
فالعيش حرب فضيلة الفعلان

وفى قصيدة (الشعراء الفنية) وصف للرجاء الذى هو عبادة وللاعتقاد الذى تزيده الأرزاء :

نصبٌ خالدٌ وأعظم منه
اعتقادٌ تزيده الأرزاءُ

من وحي الفن

كلما ارتقى فكر أمة انصرفت إلى إتقان الصناعة وحذق الوسائل الفنية، وشعرت فى الحال بافتقارها إلى المواد الأولية. فالصناعة غول فاغر فاه يريد أن يلتهم أكبر مقدار من المادة ليحيلها إلى خلق جديد له وزن وثمن . أما الأمم العادية فهى مشغولة فى أغلب الأحيان بإنتاج المادة الخام

كذلك الحال فى دولة الأدب والفن . فإن الأديب أو الفنان قبل أن يصل إلى مرحلة الانقطاع للفن والصناعة يكون شأنه شأن عامة الأفراد : يعيش الحياة المفعمة بشتى الحوادث ، الزاخرة بألوان المادة الصالحة ، حتى يدعوه الفن إلى سمائه ، فإذا هو يرى أن حذق أساليب الفن وإتقان أسباب الصناعة أمر لا بد له من تكريس حياة بأكملها . فإذا هو قد انصرف عن حياة الناس العادية بما فيها من وقائع هامة وتافهة وأحداث هائلة أو حقيرة ، وانعزل فى شبه « معمل » فنى أو مصنع فكرى يجرِّد فيه وسائله ليملك ناصية ملكاته ، إلى أن يحس من نفسه أنه قد قطع فى هذا السبيل شوطاً كبيراً وأنه قد غدا صاحب صناعة . فيلتفت فإذا أيامه التى قضاها فى مصنع الفن قد فصلته عن الحياة الرحبة الصاخبة الزاخرة ، وإذا حياته الآن فارغة إلا من جواهر الفكر ولباب التأمل وتجاريب الصناعة القلمية أو الفنية . وإذا هو محتاج لاستعمال فنه وصناعته إلى مواد أولية لا يدرى من أين يأتى بها . فهو تارة يرجع إلى حوادث الماضى فينسج من ذكرياتها تلك الأثواب الجميلة التى تخرج عن مصنع فكره وفنه . لقد لحظ ذلك مرة شارلز ديكنز فقال وهو فى سن الستين :

« إنى دائماً أتغذى وأغذى قصصى ومؤلفاتى بذكريات الطفولة والصبا ! ».

ما الأديب ذو الصناعة إذن إلا دولة صناعية فى حاجة دائمة إلى المواد الأولية .

ترشيد الكيلانى

ورجاءٌ هو العبادة والإيـ ـمان دوعٌ يرتد عنه الفناءُ

وقصيدة (العدل والكسب) تصف كيف أن الأمل والصبر أعظم حتى من العدل :

فطوبى لمظلوم رأى العدل مهوزاً قضى أن فوق العدل صبر المحارب

وفى (حقوق الفرائض) تقديم للفروض على الحقوق، وما تستلزمه الفروض من أمل وعمل :

لَنْ يبلغ المرء العُلَى بحقوقه إلاَّ إذا بلغ العُلَى بحقوقها

وقصيدة (البطل) تصف ما يكون من أثر الأمل والعمل فى مجرى الحوادث والأقدار ومنها :

ترى الحوادث بالظلال أمامها فترى خُطى الأمر الذى هو آتى

يا راكب الأيام تجرى تحته مأمونة الخطوات والعداوات

إنَّ القادر تتحيك لأنها ربطت لديك بحكمة وحصاة

كالخيل تعرف رائضاً ومُذلَّلاً عند اعتقاد السرج والصهوات

وهذه الشواهد كلها شواهد جديدة لم نشر إليها فى المقال السابق. ولو شاء الناقد الفاضل الزيادة زدناه ولكنا نختم هذا المقال بالأبيات الآتية أولاً فى وصف أمل النفس فى أن تتغلب جهود الشباب على طاغوت الحياة وهذا غاية التفاؤل :

ويُذلُّ طاغوت الأمور فتقتدى شَرْعَ الحياة شريعةُ الرحمن

وثانياً فى وصف تفاؤل النفس واعتقادها خيراً للانسانية مستقبلا :

وأملتُ للدنيا صباحاً مؤجَّلاً سيكشف عنها ظلمة الضيم والشر

فكل سباح رمزه ومثاله ووعد به يحدو إلى الزمن النضر

نُسرُّ بإنمائه وإن لم تكن لنا ونشده فيما يكون من الدهر

وثالثاً فى وصف الاستبشار بقبول الشقاء لتحقق سعادة الإنسانية المقبلة :

أيفدح أن تقاسوا البؤس نحساً ليُسْعدَ بعدكم محيا وآلا

وكم من نعمة لولا شقاء قديماً لم تكُنْ إلا وبالا

فكم خَبَرَ الأوائل من شقاء فنلنا من شقائهمُ نوالا

ورابعاً فى أن السعادة واللذة شعور لا يستقيم إلا إذا شعر المرء بالألم :

لايطعم الشهدَ الفتى وشهده من لا تزود فؤادَه الآلام

وإذا أراد الأستاذ الفاضل زيادة من شعر التفاؤل فانه يجده كما فى قصيده (حياة جديده) ومنها :

تلك قلوبٌ كأنها نبسٌ يضيء دجنَّ القضاء والعيب

قد آمنت بالعلاء واعتقدت كما يقدِّسُ الإلهَ ذى الحجب

وكما فى قصيدة الباحث :

عشت دهرى بالبحث والأمل الحـ ـر ولولاه لم أرُحْ بسجاه

من سهام المنون إن صروف الـ ـدهر فينا كثيرة الإصماء

أنشد الحق بالتقلُّب فى العيـ ـش وأبغى سريرة الأشياء

وقد قلنا قديماً إن فى النفس البشرية قوة تستطيع أن تحول التشاؤم إلى غرض من أغراض التفاؤل، وإلى قوة من قوى الاستبسال فى طلب الأمل (إنما اليأس سبيل الفنى). ونعود فنقول إنه ليس من الإخلاص للأدب أو الأديب أو الإنسانية ترك أحسن ما فى قول القائل. وهذا قول لا ننتصر به الناقد الفاضل

عبد الرحمن شكرى

مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر تقدم

ثمرة زهية من التأليف العلمى وتحفة أدبية

مباحث عربيـــة

لمؤلفه بشر فارس

الدكتور فى الآداب من السوربون

موضوعات مبتكرة . توجيه جديد . اصطلاحات مستحدثة فى ألوان الحضارة والتعبير العلمى . مراجع وافية فيها الكثير من النادر والمخطوط . تعليقات مستفيضة .

٣ مجلدات :- الأول: للمخطوطات . الثانى: للاصطلاحات العربية . الثالث: للاصطلاحات الأوربية

طبع متقن وورق ممتاز

الثمن ١٥ قرشا صاغا (٣/٢ شلنا) عدا أجرة البريد